

الكتاب المدرسي

تبعد المدرسة المصرية عن الحياة
بقلم الأستاذ سيد قطب

يقضى التلميذ في مصر نحو خمسة عشر عاما متنقلا في المدارس ، حتى يتم دراسته المعتادة ، بتدئ عادة من السابعة إلى الواحدة والعشرين ، وقد تصل إلى الخامسة والعشرين .

وهذه المدة الطويلة تعد تضحية كبيرة من العمر ، إذا نحن فصلنا بين حياة المدرسة وحياة المجتمع ، كما هي الحال عندنا اليوم ، وكما كانت في أوروبا قبل ظهور المذاهب الحديثة في التربية والتعليم . تلك المذاهب التي نجد في أنفسنا الشجاعة الكافية للاخذ بها ، إما لأن فيها جديدا خارجا على ما ألفه واضعو برامج التعليم في مصر فهم لا يميلون إليه ، وإما لأنه يتطلب نفقات مالية لا تحب أن نضحي بها ولو كانت ثمرتها أثنى من كل ثروة مادية ، وإما لأننا لم نستعد للاستفادة منها بالأساتذة المدرسين عليها ، والذين سنكل إليهم تنفيذها ، وإما لهذه الأسباب جميعا .

وعلى أية حال فإن عجزنا عن الأخذ بهذه الطرق الحديثة ، يجوز أن يقعد بنا عن تعديل خططنا وكتبنا الدراسية بحيث نبعد بها ما استطعنا عن قاعدة التفاعل بين المدرسة والحياة . هذه القاعدة التي تضيق على الطالب عندنا نحو خمسة عشر عاما من سنى الحياة القصيرة .

ومن أشهر الطرق الحديثة للوصول بين المدرسة والحياة الحقيقية "طريقة المشروع" وهي كما يفهم من اسمها ، تعتمد على خلق "مشروع" معين ، مماثل للمشروعات العامة في الحياة الواقعية ، تقوم الدراسة وتلقين المعلومات على أساسه .

وليكن "المشروع" مثلا إنشاء منزل يقوم به التلاميذ بمساعدة الأساتذة . ثم لننظر نوع المعلومات التي يمكنهم أن يفيدوها من هذا المشروع .

لأنهم سيعرفون الأطوال والمسافات عند اختيار القطعة ، وسيزيدون عليها معرفة الجهات الأصلية والفرعية عند تخطيطها ، ثم يعرفون شيئا عن الهندسة المعمارية والرسم عند تصميم المنزل ، وأشياء عن فن البناء ومواده وشيئا من التجارة والحدادة ، وسيحسبون التكاليف والنفقات

فيتعلمون الحساب العملي ، وقد ينشئون حديقة للزئل فيضطرون لمعرفة أسماء كثير من النباتات وخصائصه ومزاياء وحياته ، وإلى تربية بعض الحيوان والطيور فيدرسونه ويعرفون طبائعه وتغذيته وفوائده .

ويتعلمون في أثناء هذا كله شيئا عن الضوء والأشعة والتقلبات الجوية واتجاهات الرياح ... الخ .

ويخرجون من "المشروع" بعد هذا بثروة علمية متنوعة درسوها دراسة عملية ، لا تختلف كثيرا عما سيقع لهم في الحياة .

وفضلا على امتياز هذه الطريقة من الوجهتين السيكولوجية والتربيبية ، فإنها تعتبر كسبا لسنى الدراسة ، التى تصبح قطعة من الحياة العملية ، وممهدة لها .

ونحن لا نطمع أن تطفر العقلية التعليمية عندنا إلى هذا المستوى فى سنوات قليلة . فلنعمل على الأقل على أن نخلق الصلة بين المعلومات التى نلقنها للتلاميذ وبين ما سيصادفهم فى الحياة بعد ذلك ، وأن نجعل كل ما تلقى إليهم من المعلومات مفهوما منهم تمام الفهم .

وإن الإنسان يقف موقف المتعجب أمام بعض النصوص التى نلقنها للتلاميذ ، لبعدها عن كل معقول تارة ، أو لبعدها عن أفهامهم تارة أخرى .

فحين نكلف التلميذ حل المسائل المعروفة باسم "مسائل الخفيات والأحواض" فنقول له مثلا : "حنفية تملأ حوضا فى ثلاث ساعات ، وبالبوعة تفرغه فى أربع ساعات ، فتحت الحنفية والبالوعة فى آن واحد ، فبعد كم ساعة يمتلئ الحوض ؟" ثم نتفنن فى أوضاع هذه المسائل ونعقد فى أشكالها ، فإننا نضرب للتلميذ مثلا لا يمكن أن يقع إلا فى "مستشفى المجاذيب" . وأقل ما تؤذيه به من هذه المسائل أن نعرض على ذهنه صورة من صور العبث الذى لا طائل تحته ، والذى لا يقع عادة فى الحياة ، وأن نبعد به عن الحق العمل الذى يجب أن تكون المدرسة ممهدة له .

ولا يبعد عن هذا كثيرا نوع مسائل "الأطوال والمكاييل والموازين" فى صياغتها وبعدها عن الوسط المصرى وما يقع عادة فى وسائل المواصلات وفى البيع والتجارة .

وحين نقول للتلميذ فى قواعد اللغة العربية : "صيغة متهى الجموع" فإننا لا نستطيع أن نفسرها له ، فما معنى صيغة متهى الجموع هذه ؟

إذا كان الغرض أن هذه الصيغ لا تنبل الجمع فى صيغة أخرى فهذه ليست خاصة لها ، وإلا فكيف نجمع "أقلام ، وكتب ، وشئون" جمعا آخر ؟

وإن كان الغرض أن هذه الصيغ آخر صور الجمع لمفرداتها ، فما هي الصور السابقة لها ؟ وهل هناك جمع آخر لكلمة "مصباح" غير "مصاييح" التي هي صيغة منتهى الجموع ؟ ولماذا نلقى مثل هذا الاصطلاح غامضا في أذهان التلاميذ ؟

وشبيه بهذا أن الاسم "ممنوع من الصرف" فما هو الصرف في ذهن التلميذ الصغير ، ولماذا لا يكون هذا الاسم "ممنوعا من التنوين" ؟

والفعل المضارع . ما معنى "مضارع" هذه ؟ إن التلميذ يفهم "الماضي" لأنه يدل على وقوع الفعل في زمن ماض ويفهم فعل الأمر ، لأنه يطلب به وقوع الفعل أى الأمر ، أما المضارع فلا مدلول له في ذهنه من معنى لفظه . فلم لا يقال عنه : فعل الحال أو الاستقبال ؟

إن تعويدنا التلميذ أن يتلقى معلومات غامضة لا مدلول لها في ذهنه ، يجعل هذا الذهن غامضا في تصوره وتعبيره ، وهذا أشد عيوب الذهن الإنسانى ، فيجب أن ننأى به عن هذا الشر من حيث نريد له الخير .

*

وبعد فتحنا نشكو تعطل المتعلمين ، وأكبر أسباب التعطل عدم استعدادهم لمواجهة الحياة العملية . بينما نضع بأيدينا وكتبنا المدرسية بذور هذا التعطل ، بمباعدتنا بين المدرسة والمجتمع في كل شيء .

وليس الأمثلة التي أشرت إليها في كتب الحساب والنحو إلا طرفا لعيب شامل لكل كتب الدراسة وطرائقها ولحق المدرسى كله ، الذى يبذل همه في البعد عن جو الحياة العاملة .

وهذه مسألة اجتماعية لا مدرسية فحسب . لهذا يجب أن ننظر إلى أثر كل كلمة وكل جملة وكل مناهج في عقلية التلميذ وفي خلقه ، وفي استعداده لمواجهة الحياة . وأن نجعل ما يدرس في المدرسة شيئا مما يواجهه في المجتمع . وألا نستعين بعهد الدراسة ، فهو فضلا على طوله واقتطاعه جزءا مهما من الحياة ، يعتبر أساسا لما يليه من العمر أى أنه هو الحياة !

سيد قطب